مع غزّة

فيصل الأحمر

الإنسان أمام امتحان القضية الفلسطينية

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء. «باتت الصور القادمة من غزّة إيقاعاً وحيداً لحساب الزمن»، يقول الكاتب الجزائري في حديثه لـ«العربي الجديد»

الجزائر ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوانِ إبادةٍ على غزّة؟

كحالِ كثيرٍ من المثقّفين العرب وحتى الأجانب، أصابتني دهشة عميقة؛ بسبب ردّ فعل المثقّفين الذين تعوّدنا على بياض أيديهم إزاء الوضع في غزّة. مؤخّراً، كنتُ بصدد كتابة مقالة فلسفية موضوعها مقارنة عقدتُها بين فيلسوفَين فرنسيّين قد يكونان الأهمّ في بلادهما منذ قرن كامل: جيل دولوز وميشال فوكو، واستوقفني أنّهما قطعا صداقة عريقة بسبب القضية الفلسطينية التي ساندها دولوز، فيما أبدى فوكو برودة كبيرة إزاءها، ميّالاً صوب «إسرائيل». وفي المحصّلة - كما يقول المفكّر الفرنسي المهم باسكال بونيفاس في كتابه «فرنسا أمام امتحان القضية الفلسطينية»: «تستطيع أن تُرتّب المفكّرين جميعاً في العالم بناءً على رأيهم في القضية الفلسطينية؛ إنّها حقّاً محكّ العدالة في العالم المُعاصر». ولكنّني متفائل بما يحدث في كلّ مكان من العالم من الوعي بعدالة قضيّتنا.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

في مثل هذه الفترات، غالباً ما يتغيّر سلّم القيَم بشكل عام، ونشرع في مراجعة قيمنا وقناعاتنا، وإذا كنّا نحن المثّقفين نملك أحكاماً ثابتة حول القضيّة التي صارت بحقّ أمّ القضايا، ونملك مقاربات لا تتطوّر إلّا قليلاً - خضوعاً لما يمكن أن يجدّ من مستجدّات أو طوارئ ومن قرارات ووقائع - ولن أُخفي أنّني شخصيّاً غيّرتُ نظام حياتي كلّياً. فجأةً، يصبح العمل على السينما هامشيّاً بسبب هيمنة اللوبي اليهودي على صناعة الرأي فيها، وأيضاً تُصبح روايتك الأخيرة حول قصة حُبّ تدعوك إلى تأجيل موعد إكمالها قائلاً في لا وعيك: «مش وقتها»، ويصبح الاطلاع المؤلم على الصور المأساوية أو تلك البطولية التي تأتي من غزّة هي الإيقاع الوحيد لحساب زمن اليوم.

■ إلى أي درجة تشعر أن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

هو فعّالٌ جدّاً. في الفلسفة، والسينما والأغاني والتواصل الاجتماعي وحتى الفنون كلّها. كلّ ذلك يُسهم في خلق جوّ عام، قد يبدو للواحد في عزلته الخائرة أمراً بلا أثر، ولكنّه هامّ جدّاً، وأثره هو نفسه أثر الفراشة الذي في الفلسفة: متناهٍ في الصغر وربما تكون آثاره غير متناهية في الكبر. يعمل كلّ ذلك على صناعة آراء على تشكيل الخطاب. وتشكيلُ الخطابات هو الأرضية التي تُمهّد لاستصدار مذكّرات وتصاريح دولية بإطلاق الصواريخ. صناعة الخطابات هي أهمّ ما يعكف عليه الصهاينة من خلال شراء منابر الإعلام، والهيمنة على محرّكات البحث والبوّابات في الإنترنت. هم واعون بخطر ذلك، والعرب أيضاً صاروا واعين بذلك، وما هو بصدد الحدوث ليس هيّناً.

■ لو قُيّض لك البدء من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

لي نشاطي السياسي خارج الإطار الحزبي. والكتابةُ عندي فعلُ إنسانيّ بامتياز. وأنا شخصيّاً مقتنعٌ تماماً بأنّ دور كلّ مواطنٍ عربي وكلّ إنسان في المطلق فعّال، وقد يكونُ نهائيّاً في دعم جبهة الحقّ. ساهمنا بدعم فلسطين، ولنا أصدقاء نتواصل معهم يوميّاً من الفلسطينيّين، ولنا نشاطٌ على مواقع التواصل الاجتماعي دعماً لهم، كلّ ذلك فعّال جدّاً في تغذية العمل النضالي. «اعلموا أنّكم لستم بمفردكم»، هذه هي الرسالة التي نريد إيصالها إلى أهلنا في غزّة.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

التغيير بطيء، ولكنّه أكيد. كارل ماركس يقول: «كلّ حدث تراجيدي يأتي في التاريخ مرّتين: الأُولى بحدّة ومأساوية، والثانية بخفّة واستحسان». بمعنى أنّ دائرة التاريخ تسير دوماً، وما نستغربه اليوم يصبح غداً شيئاً مألوفاً. سيأتي غدٌ، قريبٌ أو بعيد، يصبح النظام العنصري الذي تفرضه الصهيونية الإسرائيلية على فلسطين شيئاً من الماضي كما هي حال الأبارتايد اليوم، وسيأتي يوم نرى فيه العلم الفلسطيني مرفرفاً على بيت المقدس، وستحطّ طائرات آتية بالحُبّ والفرح والحياة من كلّ مكان على مطار غزّة، وكلّ ذلك سيبدو لنا طبيعيّاً ولا غرابة فيه.

■ شخصية إبداعية مقاوِمة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

الكاتب الفلسطيني الكبير إميل حبيبي. سأحيّيه على أنّه بقي في الداخل، وسأسأله: كيف استطعت المحافظة على الابتسامة يا مولانا؟ وكيف غلب المتفائل داخلك المتشائم؟

■ كلمة تقولها للناس في غزّة؟

قريبٌ هو اليوم الذي سأذهب إلى المطار لأركب الخطوط الجويّة الفلسطينيّة صوبَ غزة؛ لأجل لقاء إخوتي... سنقرأ قصائد الحُبّ، لا لشيء إلّا لكي نقول للعالم كلّه: ما زلنا في غزّة قادرين على الحُبّ. وستكون في جيبي حفنة تراب من جبال الأوراس أضعها تحت زيتونة غزاويّة، وأقول لها: كانت الرحلة قصيرة بين الزيتونتين.

■ كلمة تقولها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

القاعدة الوحيدة في التاريخ هي غياب كلّ قاعدة - كما يقول الفيلسوف الفلسطينيّ الهوى إدغار موران - فالتاريخ قابل للصناعة كلّ يوم. لا تفقد الأمل يا سليل الأحرار ويا حامل لواء الحرية والنور والسلام. الغد مشروع اليوم فلا تحزن ولا تفرح واعمل لغدٍ أفضل وكفى.

■ حين سُئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان، ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيحبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي».. ماذا تقول لدارين ولأطفال فلسطين؟

لا توجد كلمات تُضمّد الألم... لم يبلغ الطبّ هذا الحدّ بعد. ولكنّني داخل الكلمات سوف أجد خلف اسمك «دارَيْن»: داراً للألم وأُخرى للراحة. داراً نتعرّفُ فيها على الحرب، وأُخرى نمحو فيها كلّ ما عرفناه. داراً للخطأ والبلاهة ثم داراً أُخرى يا دارين لكي نكون معاً، ولكي نكون أقرب إلى الحكمة. ولكي لا يغلبك الألم سوف نقسمه قسمين: نصفه تحملينه، ونصفه دعيني أحمله عنكِ أيّها الملاك الصغير. هل تسمعين هذا النبض يا دارين؟ هل تسمعينه معي؟ إنّه نبض آلاف القلوب التي تنبض من أجلك، كوني قويةً. ستكون هناك أيام صعبة، لكنّني معك يا دارين. واعلمي ما كان ماما وبابا يقولانه لك دوماً: أنت أغلى شيء في الوجود. كذلك أنت وكذلك ستظلّين.

متفائل بما يحدث في العالم من وعي بعدالة قضيتنا

العمل الإبداعي فعال جداً في تغذية العمل النضالي

فيصل الأحمر

بطاقة

روائي وشاعر ومترجم وأكاديمي جزائري، يعمل أستاذاً للأدب الإنكليزي في جامعة بومرداس بالجزائر. صدر له خمسة وعشرون إصداراً؛ من بينها في الدراسات: «السيميائية الشعرية» (2005)، وفي الشعر: «مساءلات المتناهي في الصغر» (2007)، و«الرغبات المتقاطعة» (2017)، وفي الترجمة: «عالم جديد فاضل» (2010) لـ ألدوس هكسلي، وفي الرواية: «أمين العلواني» (2008)، و«ساعة حرب ساعة حب» (2012)، ومدينة القدّيس أوغسطين» (2024).

معرض

أُفق وحَدّ رؤى ثمانية وعشرين فنّاناً معاصراً

الطبيعة بين الرومانسية والفوتوغراف والترفيه الرقمي

يجمع المعرض الذي يتواصل حتى الخامس والعشرين من الشهر الجاري في مدريد ثلاثة وأربعين عملاً فنياً تتلاقى في فكرة تحليل الطبيعة من منظور الفن المعاصر

مدريد ـ **العربي الجديد**

في الثقافة الأوروبية، بدأ تقدير المناظر الطبيعية باعتبارها نوعاً تصويرياً منذ القرن السابع عشر فصاعداً. وقد وصل هذا الفنّ إلى أقصى تعبير عنه في القرن التاسع عشر، بدءاً من الرومانسية ووصولاً إلى الانطباعية. وفي العصر الراهن، عادت المناظر الطبيعية إلى الواجهة بسبب إمكانات الخيال التي تسمح بها التكنولوجيا الرقمية، فضلاً عن القلق الناجم عن تدهور الطبيعة والتهديد البيئي لتغيّر المناخ.

وإذا سمحت لنا المناظر الطبيعية سابقاً بالحلم، وبتخيّل مكان يُمكن أن يكون الجنة على الأرض، فضلاً عن الأماكن المجهولة أو النائية، فإنّها اليوم تكتسب، مرّة أُخرى، أهمية في الفن من خلال تهجين الصور وإمكانية إنشاء روايات جديدة.

يتعمّق معرض «أفق وحَدٌّ»، المقام حالياً في معرض «كايشا فورم» بمدريد، ويتواصل حتى الخامس والعشرين من الشهر الجاري، في الطريقة التي نتعامل بها مع المناظر الطبيعية كتمثيل مباشر لها. ففي نهاية المطاف، هذه المناظر الطبيعية ليست إلا مجرد اختراع فني حدّد إدراك البشر للطبيعة، كما حدّد القدرة على العاطفة في مواجهة الظواهر الطبيعية.

يجمع المعرض ثلاثة وأربعين عملاً فنياً لثمانية وعشرين فنّاناً معاصراً من جنسيات مختلفة، ويقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية من حيث الموضوع، هي: خيال المناظر الطبيعية، تجربة المناظر الطبيعية، وتأثير الإنسان على الطبيعة. هذه المحاور الثلاثة تتلاقى في فكرة تحليل المناظر الطبيعية من منظور الفنّ المعاصر، مع إيلاء اهتمام خاص للّغات الجديدة: التقنيات الرقمية التي تسمح بإنشاء صور وهمية وكاميرات وإجراءات تسجيل مستقلّة، ودور التصوير الفوتوغرافي وسيلةً لإصلاح الواقع وإعادة إنشائه وتعديله.

في القسم الأول من المعرض، يبرز تنوّع الصور والأفكار حول المناظر الطبيعية التي يستخدمها الفنانون لإنشاء أعمالهم، وغالباً ما يجمعون بين الرؤية الرومانسية والصور العلمية والترفيه الرقمي. هذا التنوّع من شأنه أن يُظهر مدى تعقيد العلاقة التي يقيمها الإنسان مع البيئة الطبيعية، التي تجمع بين التمثيل والخيال، الواقع والوهم. تبرز في هذا القسم أعمال الفنانة البريطانية تاسينا ديان (1965)، وأعمال الفنان الألماني يوليوس فون بسمارك (1983)، الذي يمزج الحدود بين النقش والتصوير الفوتوغرافي في محاولة لخلق خدعة بصرية، كما هو الحال في عمله «رسم منظر طبيعي»، فضلاً عن أعمال كل من الألماني ميشيل نجار (1966) والإسباني ألبرت ميرينو (1979).

في القسم الثاني من المعرض، تبرز رغبة الفنانين باختبار الطبيعة، حيث تحاول الفنانة الإيطالية أندريا جالفاني (1973) إضفاء الخلود على لحظة غروب الشمس، مصوّرة الشمس المُعلّقة فوق البحر بكاميرا مثبّتة على طائرة أسرع من الصوت، أمّا الفنان الكتلاني أوريول فيلانوفا (1980)، فيجمع ما يقرب من ألف منظر للشمس وهي تتحوّل عاكسة ضوءها إلى مناظر طبيعية خلّابة باللون الأحمر. زميلته الفنانة البرشلونية باتريشيا داودر (1973) تأخذ من الانفجارات البركانية نقطة الانطلاق لتصوّر تأثيرها على المناظر الطبيعية وعلى حياة السكان. في هذا القسم، نلاحظ أيضاً دخول عنصر الصوت، من خلال تسجيل صوتي يضعه الفنان السويسرى ماركوس مايدير (1971) في الصالة، حيث يمكن سماع صوت الطبيعة التي يتردد صداها في صوت آلة التشيلو أمام وادٍ جبلي.

في القسم الأخير من المعرض، تغلب المسحة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على المناظر الطبيعية، كما هو الحال في «مسارات الصحراء» للفنان البرشلوني كزافييه ريباس (1976)؛ وهو عبارة عن سلسلة من ثلاثة وثلاثين صورة فوتوغرافية لصحراء أتاكاما في تشيلي. كذلك تحضر الحروب وتأثيرها على الطبيعة، كما هو الحال في عمل «فعل» للفنانة الفرنسية صوفي ريستيلهوبر (1949)، وهو عبارة عن سلسلة من الصور مؤلّفة من واحد وسبعين صورة التُقطت في الكويت بعد انتهاء حرب الخليج.

من الفنانين المشاركين أيضاً في المعرض، نذكر: الإسبانيان ميكيل بارسيلو وجوان فونتكروبا، والألمانيان أندرياس غورسكي وآن إيمهوف، إضافة إلى فنانين من إيطاليا، وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا وغيرها من البلدان.

استعادة لمفهوم الطبيعة في زمن التغيرات المناخية والبيئية

«مسارات الصحراء» للفنان البرشلوني كزافييه ريباس (من المعرض)

رحيل

حيوات مع المسرح ولأجله

موسى زينل

تتكثّف في سيرة المسرحي القطري، الذي رحل أول من أمس السبت، رؤية وطنية للنهوض بالعمل الثقافي في بلده متّخذاً من المسرح مركزاً لانطلاقه

الدوحة ـ **العربي الجديد**

خلق غوّاصو الخليج العربي مشهدية إيمائية أصيلة في الحياة اليومية البسيطة قبل أن تترسّخ الحداثة بعماراتها وأبراجها، رجالٌ يودّعون بطقوس أشبه بالأعراس ليغوصوا في مياه الخليج من أجل صيد اللؤلؤ، ثمّ يعودوا من رحلتهم القصيرة/ الطويلة التي تُحبَس فيها الأنفاس. طقسٌ شعبي كُتب عنه الكثير، لكن أن يُتّخذ مرجعية مسرحية فهذا ما التفت إليه مراراً المسرحي القطري موسى زينل، الذي رحل عن عالمنا أول من أمس السبت. في حوارٍ له مع «صحيفة العرب» القطرية، يستعيد الراحل (1945 - 2024) تلك المشاهد، ويرى أنّها المرجعية الأصلية عند الحديث عن أُسس تطوّر المسرح العربي التي أرساها أبو خليل القبّاني، كما يقول.

من منطقة فريج الغانم قرب الدوحة كانت الانطلاقة، ومن مسقط رأسه جاءت أولى المحاولات، يتحدّث زينل عن والده والمساكن الشعبية والبيئة المفتوحة بعناصرها، في وقت كانت فيه مدارس البلاد ما تزال في طور التأسيس، خلال خمسينيات القرن الماضي، قبل أن يتغيّر الزمن سريعاً وتبدأ النهضة العمرانية والثقافية، لكنّ المسرح لم يكن في أفضل حال، ولم يشهد نهضة موازية بالشكل المطلوب، وهذا الهاجس ظلّ يُؤرّق موسى زينل.

بعد إتمامه المرحلة الثانوية في «المعهد الديني» بالدوحة، توجّه الراحل إلى مصر وهناك تعرّف إلى الحركة المسرحية التي تأثّر بها، منخرطاً بنشاطات المسرح الجامعي. وفي هذه الفترة من إقامته بالقاهرة، بدأ يطوّر الأُسس التي كانت لديه، واستمدّها من الثقافة الشعبية، وبالأخص من عمل الغواصين بما فيه من إيماءات، وكذلك مكّن أواليّات سبق أن حصّلها من العمل الكشفي. وعليه، يُمكن القول إن المرحلة المصرية بُنيت على أساسات متينة، إذ ما كان للشابّ القطري أن يتأثّر بمسرحية «آلام الحلّاج» للشاعر صلاح عبد الصبور، التي عُرضت مطلع السبعينيات، وظلّ يستعيدها الراحل في مراحل لاحقة من حياته، فضلاً عمّا حملته تلك المرحلة من انفتاح على تجارب عربية ونصوص عالمية سيستعين بها حين آن أوان العودة إلى الوطن.

في قطر مرّة ثانية بعد سفر وتعلُّم، وفي زمنٍ متسارع تغيّرت فيه البلاد وأخذت بأسباب الحداثة، كان لموسى زينل بصمة في العمل الثقافي، وانشغال بترجمة التنمية الاقتصادية والعمرانية في حقول الإبداع الإنساني والثقافي، حيث صبّ جهوده من أجل إنشاء المسرح الشبابي والجامعي وتنميتهما، بالطبع لم تكن هذه المرحلة عبارة عن حالٍ واحدة متجانسة، إذ نراه يُقارن في إحدى مقالاته بين ما كان عليه الحال في الثمانينيات والتسعينيات وما هو عليه اليوم، ويتحدّث عن «نكوص» في الحركة المسرحية القطرية، ويستنكر إلغاء المهرجانات الشبابية والجامعية.

أكثر من خمسة عقود من تطوير العمل الثقافي بذلَها موسى زينل، نجد أثرها يتردّد في النعي الذي كتَبه رفيق دربه، ورئيس «مكتبة قطر الوطنية»، حمد الكواري، «ليس أمَرُّ من الفقدان، وخاصة فقدان شخص نحت اسمه في التاريخ الثقافي لوطننا وامتدّت تجربته في العالم العربي، فكان رائداً من رواد المسرح القطري، والثقافة العربية... واليوم انطفأت شمعة مضيئة من شموع الثقافة والمسرح القطري والعربي، وأُسدل الستار على حياة كانت مليئة بالإبداع». الجدير بالذكر أنّ الكواري كان وزيراً للثقافة مرّتين وفيهما حرص على أن يُوكل إلى موسى زينل مهامه الثقافية، بعد مسيرة مشتركة طويلة امتدّت منذ مقاعد المدرسة في قطر إلى كلية دار العلوم في القاهرة إلى أن اضطلع بأدوار هامّة في إقامة المهرجانات المسرحية وإنشاء فرق مسرحية جديدة.

مسرحيّ من جيل الروّاد تجاوزت رؤيته حدود الخشبة

موسى زينل (يميناً) مع فهد الهاجري أثناء فعاليات مهرجان «الكويت المسرحي» 2015

فعاليات

ضمن سلسلة أمسيات حول علم الآثار والتراث، تستضيف «جمعية نسيجُنا» في مدينة الناصرة المحتلّة، عند السابعة من مساء بعد غدٍ الأربعاء، الباحث الفلسطيني وعالم الآثار **وليد أطرش** لتقديم محاضرة بعنوان **ثقافة صناعة الأواني الفخّارية عبر التاريخ**، حيث يضيء على هذه الصناعة منذ الألف الرابع قبل الميلاد.

تُفتتح في «مركز قطر للابتكار وريادة الأعمال في التصميم والأزياء والتكنولوجيا» (M7) بالدوحة، عند الحادية عشرة من صباح بعد غدٍ الأربعاء، النسخة الرابعة من برنامج **زوارة** التي تتواصل حتى الثامن عشر من كانون الأول/ ديسمبر المقبل. يضمّ المعرض ملاحظات بحثية، ورسومات، وعيّنات، ونماذج عينية للمصمّمين **غالية المهندي**، و**همام العبد الله**، و**عبد الباسط**، و**ستيفين أمويو**.

يُطلِق فضاء «برزخ» في بيروت، عند السابعة من مساء غدٍ الثلاثاء، سلسلة جلسات حوارية بعنوان **حكي موسيقى**، وتُستهلّ بجلسة حول تاريخ المشهد الموسيقي اللبناني، واستقبال لبنان فنّانين أكثر من تصديره المواهب. تشارك في الجلسة الفنّانة اللبنانيّة **ساندي شمعون** (الصورة) والمنتجَتان **نوران حاتم** و**أدوين حرب**.

ينظّم فضاء «كولتوراما» بلندن، عند الواحدة من ظهر السبت المقبل، النسخة الثانية من **المهرجان الجزائري للفنون والثقافة** (DzFest 2024)، التي تتواصل حتى التاسع والعشرين من الشهر الجاري. يشتمل المهرجان على حفل لفرقة **راينا راي** الجزائرية، وورش عمل حول الرقص الشعبي والغناء الأندلسي في الجزائر.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي

نصوص الحياة والحرب من غزّة

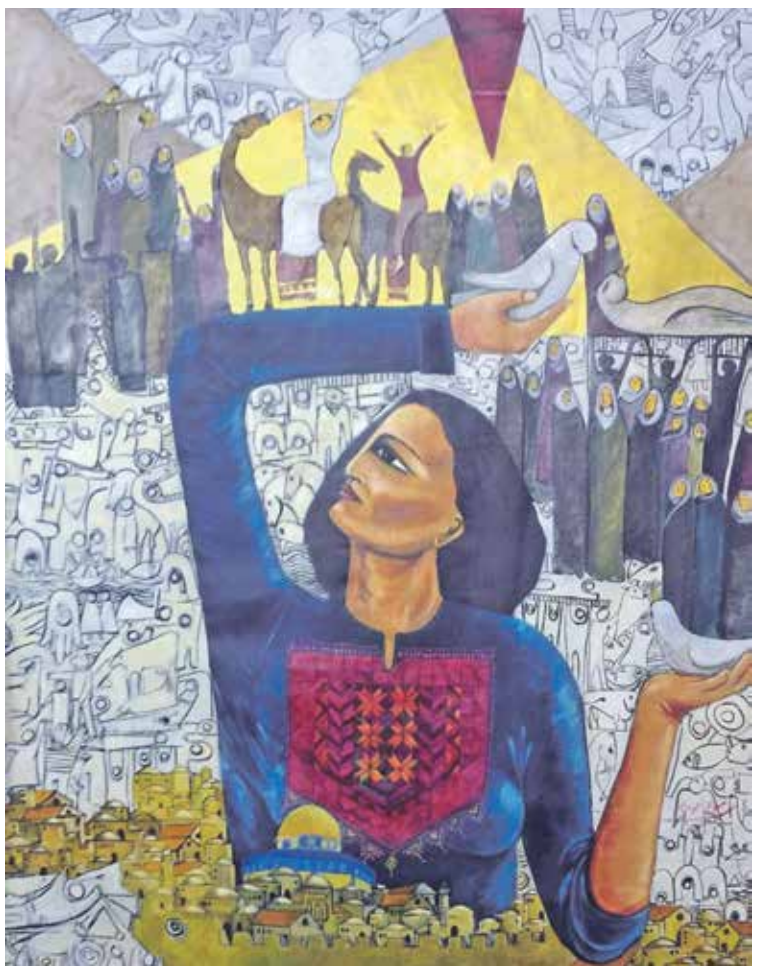

عمل للفنان الفلسطيني عبد الناصر عامر

في كل صباحٍ من هذه الإبادة يُولد فينا إنسان، ولادة قيصرية مُرّة، فيها من الألم ما يكفي للموت ألف مرة

محمد عبد الرحمن كاتب

موتٌ بلا ذنب

كان من المفترض أن أستيقظَ على يومٍ جديد، يومٌ أنبذه بوصفه يوماً عادياً ليس إلا مجرّد روتينٍ مُعتاد. لم أكن أعلم أن صباح السابع من أكتوبر (تشرين الأول) سيكون بمثابة سنةٍ ضوئية. كان صباحاً مختلفاً، لم يستطع أن يُشبع فينا وهماً.

كيف لا، وقد اعتدنا طوال العمر خيبات القهر والانهيار؟ بعد تسعةِ أشهرٍ من هذا الكابوس، ما زلتُ لا أدري، كيف ومتى بات ذاك اليوم الجديد ذكرى قديمة لا يمكن أن تُعاد! لم تشرق شمس الثامن من أكتوبر حتى الآن.. لم أستيقظ بعد، بل لم أستيقظ قط! نِلتُ من الألم ما يكفي لتخدير ألفِ قلب.

كانت البداية مألوفةً، فهذه ليست المرّة الأولى في الحرب، أربعةٌ وعشرون عاماً من العمر قُسِّمت على ستة حروب سابقة ما بين تصعيدٍ وعُدوان، بدايةٌ امتدّت خمسة أيام فقط، قبل أن أواجه ما لم يكن بالحُسبان! كانت الأيام الخمسة الأوائل من الحرب أشدّ علينا من كل تلك الحروب، استهدافات عشوائية في كلّ مكان، انقطاع تام للإنترنت والكهرباء، وشحّ مفاجئ لكل السلع وأساسيات الحياة. كانت أصوات الانفجارات مرعبة وكأنها تُسمع لأول مرة، رغم حصول أغلب سكان قطاع غزّة على درجة الماجستير في التعرّف على أنواع القنابل الملقاة فوق رؤوسهم، إلا أن هذه المرة كان العدو وحشاً، استعمل لقتلنا ما هو أشد فظاعةً وفتكاً.

■■■

أما في اليوم السادس من الحرب، فقد واجهتُ فاجعة التهجير لأول مرة، حين تضطر إلى أن تترك كلّ ما تملك كي تملك فقط نفسك، لم أعتد هذا الشعور المريب، كيف يُمكن للروح أن تسكن في مكانٍ غريب؟ ويا ليته كان مكاناً، بل كان مقبرةً جماعيةً تُدعى مستشفى الشفاء!

مكثنا في المستشفى قرابةَ الشهر، وكانت هذه المدة كفيلةً بقتل كل مشاعرنا الإنسانية. أتدرك معنى أن تحيا كل يومٍ وسط العشرات من الشهداء والأشلاء.

أن تفزع من صراخ الأمهات وتبكي على قهر الآباء! أن يغفو طفلٌ مصابٌ في حضن أمّي، بعد أن فقد كلّ عائلته ولم يبقَ له أحدٌ في الحياة، أن تُقصَف مرافق المستشفى فوق رأسك وتنجو أكثر من مرة بصعوبة!

■■■

كانت المجازر لا تتوقف، وظلَّ هذا السؤال يرادوني.. «لو كانت المجزرة الواحدة تزيدنا من العمر بضعةَ أعوام، فأي شيخوخةٍ بإمكانها احتواؤنا الآن؟!»

لم أجد إجابةً، باتت كل الأحرف عالقةً في السماء. ولا يوجد إدراك إلا لحقيقةٍ واحدة؛ حقيقة أننا كلنا شهداء، حتى لو بقينا أحياء.

■■■

في اليوم الرابع والثلاثين، ذاك اليوم المشؤوم، حين استيقظنا على إخلاء المستشفى والنزوح نحو الجنوب، حيث كانت الجثث ملقاةً على الأرض لا تجد من يغطيها ولا من يدفنها، وكأنها أهوال يوم القيامة. صراطٌ يحتوي سبعين ألف إنسان سيراً على الأقدام مسافة أربعة عشر كيلومتراً تحت أشعة الشمس الساطعة، رفعنا الرايات البيضاء والبطاقات الشخصية أثناء عبورنا الحواجز العسكرية، لم يكن بإمكاننا الالتفات أو الحديث، حتى وصلنا برّ الأمان الكاذب.

مكثنا في مدينة خانيونس خمسةً وعشرين يوماً فقط، حتى أصبحت المدينةُ منطقةَ قتالٍ خطرة، وبات الغرق هذه المرة في البر لا في البحر.

بالمناسبة، كانت فترة النزوح في خانيونس هي الأشدّ مجاعةً، خسرتُ من الوزن ما يقرب العشرين كيلوغراماً، تبدلت فيها الملامح واختلف الجسد، لم يبق مني سوى روح مُنهكة من شدةِ التعب.

إلى أقصى الجنوب، حيث مدينة رفح؛ المهرب الأخير، في مدرسة إيواء، من الخيام التي لا حول لها ولا قوة أمام الأمطار، وبين الأمراض.

■■■

بعد مرور خمسة أشهر على كابوس النزوح هذا الذي لم ينته حتى الآن. تتزايد التهديدات باقتحام رفح، وفيها من النازحين والسكان قرابة المليون، بعد ممارسة كل أشكال الإبادة الجماعية بحقنا

نحن الآن أمام خيارين لا ثالث لهما؛ إما نزوح نحو المجهول للمرة الخامسة، وإما نهاية حقيقية لهذه الحياة البائسة.

في أحد الأيام، وفي محاولة يائسةٍ للحصول على خبر جيد، حلَّ الوجعُ الأكبر، لم يبق شيء. خسرنا بيتنا في غزة هناك في الشمال. فالأمل الوحيد قد أُعدِم وتم حرقه. لم يعد هناك بيتٌ أو حتى حديقة. حين غادرته مُجبراً لم أستطع أخذ شيءٍ معي، لم أكن أدرك أنه الوداع الأخير، وأن كل شيءٍ تركته هناك.. قد بات ذكرى.

■■■

كم مرةً يجب أن نبدأ من جديد؟ ألم يكتفِ القاع منا؟ ألا يحق لنا ملامسة السماء؟ ضاعَ ماضينا وبُعثِرت ذكرياتنا، دُمِّر حاضرنا وأُعدمت أحلامنا، عشنا من الذل ما يكفي لتمني الموت وأكثر، كان القهرُ يقتل فينا ما لا يمكن لسلاح أن يفعل إلى أن بات في داخلي حقدٌ لا يُعدّ ولا يُحصى، لا عزاء لي، ولا يُمكن أبداً أن أُشفى.

بعد فشل كل المفاوضات التي بلا معنى، وبعد أن التهم اليأس كل ما تبقى من أنقاض الأمل، نجد أنفسنا نترك رفح ولا نعلم أي مقبرةٍ الآن بإمكانها احتواء كل هذا الألم. ننزح للمرة الخامسة في هذه الحرب المستمرة منذ مئتين وخمسة عشر دهراً، بعد أن مكثنا في خيام رفح مئةً وخمسة وخمسين قهراً! نعود إلى خانيونس، بعد أن أصبحت صحراء قاحلة، وكأن قنبلةً نووية قد أُسقِطت عليها! يا لهول الدمار.. كيف يمكن لعقلٍ بشريٍّ أن يدركه!

ها نحنُ الآن في مدرسة إيواءٍ أخرى، لكن هذه المرة في صفٍّ دراسي لا خيمة، أي وكأننا قد نلنا ترقيةً لعينة! وكحال كل الأيام الماضية، لا يتوفر أدنى مقومات الحياة، عادت المجاعة لتفترس ما تبقى من أجسادنا الهزيلة، أصبحنا غرباءَ حتى على أنفسنا، لم تعد المرآةُ صالحةً للاستخدام، ففي كل صباحٍ من هذه الإبادة يُولد فينا إنسان، ولادةٌ قيصريةٌ مُرّة، فيها من الألم ما يكفي للموتِ ألف مَرة.

أما عن الحقيقة المؤسفة بعد كل هذا، فلا يُمكن أن نُشفى بتاتاً.

عزة الشيخ فنانة تشكيلية

خريف آخر على ضفاف فلسطين

في صبيحة السابع من أكتوبر /تشرين الأول 2023، وبينما يستعد أبنائي للذهاب إلى مدارسهم، أي في حوالى الساعة السادسة والنصف صباحاً، انطلق كمٌّ هائل من الصواريخ. ملأ الذعر قلوبنا. كان الأمر يشبه يوم القيامة. لم نعرف ما الذي كان يحدث، وبالطبع ألغي الذهاب إلى المدرسة وبقينا في انتظار أي نشرة أخبار تقول لنا ما الذي جرى تحديداً.

كنتُ أصلاً في إجازة من عملي بسبب كسر في يدي اليمنى. في حوالى الساعة التاسعة صباحاً، الأخبار تتداول تفاصيل العملية وطبيعة ما جرى.

بدأ القصف يهز الشمال كله بخاصة أبراج الكرامة وأبراج المقوسي وأبراج المخابرات التي تقع خلف منزلي. كانت الصواريخ أميركية الصنع تصدر أصواتاً تخلع القلوب قبل أن تخلع المباني، حتى أنني لم أنم مدة ستة أيام، إذ كنت أضع اصبعيّ الإبهام في أذنيّ. في الصباح، تركتُ منزلي وتوجهت إلى منزل والدي هرباً من الشظايا التي طاولت منزلي، خصوصاً أنّ بيتاً مقابل بيتنا هُدد بالقصف. خرجتُ مرتدية ثياب الصلاة. لم نكن أنا وأسرتي نحمل معنا شيئاً معتقدين أننا سنعود عند نهاية الضرب، لكن الضرب زاد وتواردت الأنباء عن ضرورة التوجه الى الجنوب، فهناك المنطقة أكثر أمناً، لكنني قررت الذهاب إلى مدرسة تابعة للأونروا والتي تحولت إلى مركز إيواء.

هناك أمضيت ليلة كاملة افترشنا فيها الأرض حيث لا فراش ولا غطاء ولا ماء ولا طعام. في الصباح وفي تمام العاشرة وجدت الأجواء متوترة في المدرسة، وتم إخطار الجميع بالتوجه للجنوب. وبالفعل خرجنا تحت القصف الشديد إلى خانيونس بسرعة جنونية، حتى أنني خفت أن تقتلنا السرعة بدل الصواريخ. ما أن وصلنا حتى لجأنا إلى بناية العائلة حيث المكان مزدحم أصلًا لنحصل على غرفة في شقة سكنية. كان هناك شح في المياه سواء للاستخدام الشخصي أو للشرب، حتى أن مياه الشرب غير صالحة وملوثة، كما أن الدقيق غير متوفر بل كنا نمضي أياماً بحثاً عن رغيف. قد ننتظر في طابور يبدأ وقوفنا فيه من بعد منتصف الليل إلى منتصف نهار اليوم التالي لنحصل على ربطة خبز واحدة.

وأحياناً لا نكون محظوظين فلا نتمكن من الحصول عليها بعد طول الانتظار.

قررت أن أفك ضماد يدي بنفسي من دون استشارة طبيب، ورسمت بعدها أول لوحة صغيرة مصنعة من البلاستيك بمعاناة عبر استخدام ملعقة صغيرة، كنت قد حصلت عليها بعد شراء طبق هريسة لسدّ جوعي. كسر يدي ألمني وأصابعي كانت متيبسة وبذلت جهداً جباراً لثنيها وتحريكها.

بقينا في هذا البيت الواقع بحي الأمل حوالى شهر ونصف حتى قصف البيت المجاور لنا تماماً، وتطايرت الشظايا من حولنا وتكسرت الشبابيك والأبواب. نعم نجونا من الموت بأعجوبة. أصبح البيت كبيت الأشباح في الحكايات، لا يصلح للسكن ولا لأي شيء. اتجهنا إلى ابن عم لنا في الحي الإماراتي. أمضينا في بيته حوالى شهرين.

وصل الاجتياح البري إلى خانيونس وإلى منطقة الغرب فيها. لم تكن منطقتنا آمنة فخرجنا بعد العصر تحت القصف وقنص «الكواد كابتر» إلى رفح. كان الجو ماطراً، والسيارة التي تقلنا أصلاً شبه مدمرة من القصف فهي بلا زجاج. كانت الرحلة كلها معاناة. وصلنا إلى مدرسة تابعة للأونروا حيث سنمضي الليلة في أحد الصفوف، ونام الرجال في السيارات التي أوقفوها في ساحة المدرسة، إذ لا أقارب لنا في رفح. بقينا في المدرسة ثلاثة أشهر كنت أنا وياسمين وسارة في غرفة الصف وبقية الأولاد مع والدهم في خيمة على الحدود الفلسطينية - المصرية، وقد مر علينا شهر رمضان وكنا نحسبه سيكون شفيعاً لهدنة، لكن هذا لم يحصل. ثم جاء العيد تعيساً ومرت الأيام بفتور ونحن نمني أنفسنا بهدنة إلى أن أعلن عن دخول الجيش إلى رفح، حينها لم نعلم إلى أين نذهب، وتوجه الجميع إلى خانيونس المنكوبة أصلاً.

اتجهنا إلى المناطق التي حددها الاحتلال على أنها آمنة، والواقعة عند شارع صلاح الدين غربي خانيونس. أبلغنا أحد الأقارب أنّه سيترك خيمته فذهبنا إلى هناك وأمضينا في الخيمة أربعة أيام. كانت تلك الأيام الأربعة من أصعب ما عشناه من شدة الحر في النهار والبرد في الليل، ناهيك عن الحشرات والقوارض. في ذلك الوقت، رسمت لوحات صورت فيها الخيام والمواصي.

بعدها انتقلت مع عائلتي إلى بيت لعائلة الفرا، وهناك أصبح لدي نهم للرسم بشكل أكبر فكنت أهرب من واقعي، ومن الملل القاتل، إلى عالم من اللوحات التي أرى فيها ذاك الخريف القاتل الذي مرت به غزة. وكنت أمضي الوقت بين الرسم والأكل والنوم أو سماع الأخبار. بالنسبة للأكل فهو لم يتعدّ المعلبات التي تيبست بطوننا من كثرة تناولها. أما الماء فكنا نشتري الغالون بأكثر من دولار. طبعاً أنا أتحدث عن ظروف صعبة إذ لا سيولة في البنوك ولا إنترنت، وأنت بحاجة لدفع عمولة كبيرة حتى تحصل على مالك بسبب قلة السيولة.

■■■

بالعودة إلى الإيواء، أحتفظ بالعديد من الذكريات القاسية والموجعة، إذ كنا نتشارك في غرفة الصف أربع عائلات، وتستحوذ على مساحة تقترب من ثلث الفصل «البلطجية» أم طلعت، وقد تكرم الجميع بالسماح لي ولعائلتي بالمكوث في مساحة صغيرة. في الغرفة أيضاً أم الوليد وأختها وعدد من الأبناء موزعين في الغرفة، تقيم مقابلهم سيدة جزائرية مع ولديها. السيدة الجزائرية أصبحت من أعز صديقاتي.

في هذا الجو، عليك بالصبر والصمت... وأنت نائم لا مساحة للصمت فأصوات وقع الأقدام في خارج الغرفة لا تنتهي ذهاباً وإياباً من المرحاض وإليه، والمرحاض مدعاة للاشمئزاز بسبب كثرة الاستعمال وقلة الماء.

وبالعودة الى أم طلعت، فقد كنت أشك أنها رجل على هيئة امرأة، بنية جسدها الخرسانية مع ملامحها الحادة تدعوك للخوف. أخبرتني ذات يوم أنها صرعت رجلين بعد عراك معهما. كنت أقابل هيجانها واستفزازاتها بالصمت، حتى قالت لي إنها بدأت تشعر بالخجل من أدبي في التعامل معها بعد أن استنفدت كل طرق الاستفزاز. لا أدري فقد ينزل الله علينا السكينة في هذه الظروف العصيبة. كنت أضحك حين أسمع كلماتها السوقية.

ما إن علمت النساء في غرفة الصف وفي الغرف المجاورة حقيقة أنني مسؤولة في التعليم حتى تهافت الجميع يود التعرف إليّ وتكوين علاقة معي. أخذت كل سيدة تسرد لي قصة حياتها وصعوبة ظروفها، وكنت أتصنع الإنصات فيما عقلي شارد في مكان آخر. كانت الحياة أصعب من أن أتخيل أنني سأعيشها. الزكام والتهابات الصدر التي لا تفارقني من شدة البرد الذي يحيط بنا، ناهيك عن تحمل البرد القارس وقسوة الطقس. فلما كان الخروج من الغرفة أمراً لا مفر منه كان علي أن أخرج والسماء تمطر بشكل غزيز والرياح تضرب من كل جهة. والخروج من غرفة الصف في رحلة الذهاب إلى الخارج أنت مجبر عليها تحت المطر والرياح الشديدة. تشتهي الجلوس الوثير على سريرك... تشتهي أن تتصفح المواقع على موبايلك، لحظات الهدوء، ساعات الجلوس مع لوحاتك، القراءة، مشاهدة التلفزيون، مراقبة الطريق من الشرفة بصحبة كوب من الكابتشينو وقطعة شوكولاته، وتشتاق وتشتاق وتشتاق... أشياء كثيرة من حياتك تفتقدها بعد أن أصبحت كما مسخ مسخّر للجنون الذي لا تعرف من أين ولا كيف يأتيك.

في مركز الإيواء، تعرفت إلى سهام، وهي شابة مثابرة تحاول الخروج من حياة الريف والبساطة، تتمنى أن تكمل تعليمها الجامعي. تعرفت إليها وجلست معها في غرفتها، حيث كانت تصنع الخبز مستعملة ألواح المقاعد المدرسية في ترتيب الأرغفة. في إحدى المرات، طلبت مني مرافقتها إلى الفرن الطيني حيث اجتماع النساء للـ«خبيز». أحاول أن أندمج معهن فلا أبدو غريبة، لكن غالباً ما أُكشف وأُستجوب، مع شك دائم أنني لست من الجنوب، وما إن يعلمن أنني مسؤولة في التعليم حتى تختلف المعاملة أكثر. أثناء تعاملي مع سهام وجدتها تتحدث لغة غريبة لم أفهمها إذ تضيف حرف القاف إلى الكلمة من بعد الحرف الأول وقبل الأخير مثل عزة تصبح «عقزقة»، وهذه اللغة تسمى العصفورية وكانت متداولة بين السكان حتى لا يفهم العدو ما يتحدثون به. عند الغروب، وددت أن أرسم لأخرج من جو الركود الذي أصابني فلم أستطع لا أن أرسم ولا أن أطير كعادتي، فثمة أطفال في الجوار مزعجون وأصواتهم عالية لا يكفون عن الصراخ وعن إطلاق السباب والكلمات النابية، وأنا كنت أختنق في غرفة تضم سبعة عشر طفلاً وامرأة. في بداية الحرب، كانت تنتابني نوبات من القلق، فأبقى ثلاث ساعات متيقظة، أما في مركز الإيواء فلا أعلم كيف أصبح النوم يغمرني بشكل كبير حتى أني أستيقظ بعد الشروق بساعات.

أشياء كثيرة من حياتك تفتقدها بعد أن أصبحت كما مسخ مسخّر للجنون الذي لا تعرف من أين ولا كيف يأتيك

نكاد ننسى أسماءنا ولا نعلم إلى أين سنذهب ومتى سنعود، ونحن في انتظار يومي لإعلان هدنة

في الخامس والعشرين من شباط/ فبراير، زرت عمليات الوكالة في العيادة اليابانية فوجدت هناك حماماً مزوداً بماء ساخن للاستحمام، فاستخدمته بعد انقطاع لأكثر من شهر عن الماء، وهناك توفر الإنترنت ففتحت بريدي لأجد رسالة تخبرني بأنّ عملاً لي يشارك بمعرض جماعي باسم غزة. لكي تتعايش مع أجواء مركز الإيواء يجب أن «تستوحش» فتحارب من أجل البقاء، ولا تداس من قبل أم طلعت التي ليست غير منشار، تستنزفك مادياً، وتسيطر على كل الموارد من أجل بيعها لك بأعلى سعر، ولكي تتقي شرها يجب أن تصمد. لذلك اضطررت أن أصبح شرسة أمامها، حتى أنني قررت التصدي لها، وإن وصل الأمر للعراك بالأيدي. أكبر معاناة نواجهها هي المراحيض والتي هي كومة من الفيروسات والجراثيم المجانية، وطبعاً نحاول عدم الذهاب الى هناك، لكن عند الاضطرار عليك انتظار طابور طويل وما إن تدخل المرحاض حتى تتهافت الأيادي للضرب على الباب لاستعجالك.

حنان السيدة الجزائرية الوحيدة المثقفة وعلى مستوى علمي راقٍ، كنت أنتظر مجيئها يومياً عند التاسعة مساء لكي نتسامر وتطلعني على آخر الأخبار، فلا إنترنت ولا راديو لديّ. وعند الساعة الثانية عشرة ننام، في انتظار صباح جديد وأمل في هدنة.

يوما الأحد والأربعاء موعد استلام «الكابونة» إذ نصطف طابوراً طويلاً من أجل الحصول على بعض المعلبات التي أصبحت روتيناً في جدول طعامنا. لا مكان لغسل ملابسك وإن غسلتها وتركتها لتجف تُسرق. تقترب رويداً رويداً من الجنون... فقط ما يهدئ من روعك ويخفف توترك أذكار الصباح والمساء لعلّ الله يظلك بظله الوفير. تستعجب من جرأة هذا الجيل من الفتيات فهناك من تتسكع على الأدراج للقاء حبيب، وهناك من تحدثك بقلة أدب، والمستفز أنّهن يدّعين النعومة في مظهرهن الخارجي فيما هن من الداخل شرسات.

خلال سيري ذهاباً وإياباً من الخيمة وإليها كنت أمر بأناس يحملون موتاهم على أكتافهم في مشهد اعتيادي يومي، وآخرون ينهبون الكابونات من الشاحنات المارة عبر الحدود، فيما أطفال يركضون على التلال الرملية. كلٌّ له عالمه الخاص. نكاد ننسى أسماءنا ولا نعلم إلى أين سنذهب ومتى سنعود، ونحن في انتظار يومي لإعلان هدنة أو عودة للشمال حيث بيوتنا مجهولة المصير.

اليوم الجمعة، نسمع صوت الأذان ونُحرَم الصلاة، فلم نعد نعلم إن كنا طاهرين أم لا. بكيت لاشتياقي للوقوف بين يدي الله ولم أستطع. أشتمّ رائحة الدجاج المطبوخ ولا أصل إليه، فلا بد من انتظار طابور طويل للحصول على دجاجتين ثم تعود خاوي اليدين لتأكل بطاطا مسلوقة.